السيد البدوي
حارب الفرنسيين

للدكتور أحمد عبد المنعم البهى

الاستاذ بكلية الشريعة

لا اخالك تجهل عظمة الاحتفال بالمولد الكبير للسيد أحمد البدوى فى مدينة طنطا فالناس يرقبون قدومه ، ويتلهفون عليه كما يرقبون مقدم عزيز عليهم طالت غيبته .

ولا أعد الحقيقة فى شىء اذا قلت ان الذين يساهمون فى احياء هذا المولد كل عام لا يقل عددهم عن مليونى شخص . يملأون طنطا وضواحيها ويقيمون المخيمات على مشارفها ومسالك الطرق المؤدية اليها ينحرون الذبائح ، ويطعمون الطعام ويقيمون حلقات الذكر ، ويرددون الاناشيد فى مدحه ومناقبه، وتقضى طنطا أيام المولد ليلها ونهارها فى ابتهاجات لا تنقطع وصفاء روحى دائم مما يتجلى فى سيل الوفود التى تتزاحم لزيارة ضريح السيد البدوى وهم بين مهلل ومكبر ومنشد ، وبين مأخوذ بأفضال السيد البدوى ، وبين مجدد للعهد فى أن يقتفى سيرة هذا الولى الصالح ، وينهج على طريقته فى الزهد والورع عسى أن يصل الى طريق الصالحين .

حياة حافلة

والسيد البدوى الذى احتفلنا بمولده الكبير هذا العام خلال الشهر المنصرم قطب من الاقطاب المعدودين ، وامام من أئمة التصوف الواصلين. كانت حياته مثلا أعلى فى الزهد والورع ، والتقوى والصلاح ، والاخلاص لله حتى نعم بالفتوح الربانى والفيض الالهى ، وتلك منزلة ليس باليسير الوصول اليها ، ولا الارتقاء الى مكانها وانما هى نفحة الهية يخص بها المخلصين من عباده . المتطلعين الى وجهه الكريم ، المتفانين فى حبه وعبادته والذين طلقوا الدنيا بمباهجها وزخرفها ، ونحوها عنهم ، وجعلوا بينهم وبينها سدا منيعا .

وحياة السيد البدوى حياة حافلة بالمواعظ وجهاد النفس وترويضها على التفانى فى سبيل الله . فمنذ صغره وهو يركب الصعاب والمخاطر لا يروم الا وجه الله الكريم من وراء ذلك .

وحسبك أن تعلم أنه شب فوجد الحكام يضطهدون ذرية الامام على الذى هو واحد منهم . فالامويون اضطهدوا آباءه وأجداده وشتتوهم كما شتتوا سائر أفراد البيت العلوى فآثروا الرحلة الى بلاد أخرى ينشدون الامن فيها بعيدا عن عنت الامويين واضطهادهم واختار أجداده المغرب مقرا لهم ، فلما ظهرت دولة الموحدين فى المغرب وقامت بينها وبين دولة المرابطين، حروب وخصومات اضطر معها على بن ابراهيم والد السيد البدوى أن يرحل بأفراد أسرته الى أرض الحجاز طلبا للامن وبعدا عن اضطهاد الموحدين وكان ذلك فى سنة ٦٠٣ هـ ، وفى هذه الاثناء كان السيد البدوى فى السابعة من عمره واحتمل مع أسرته مشاق الرحلة التى استمرت أربع سنوات مرت أثناءها بمصر واستقرت بها عامين تقريبا وألقت ترحالها فى مكة المكرمة حيث أقامت بها واتخذتها موطنا لها بعد أن أدت فريضة الحج .

وفى مكة أتم السيد البدوى حفظ القرآن الكريم ودرس الفقه على مذهب الامام مالك فى بادىء الامر ثم أتم دراسته فيه على مذهب الامام الشافعى حتى أصبح علما من أعلام الفقه .

ومال الى الزهد والتصوف منذ صغره . وكلما شب وترعرع نما معه ميله الى التصوف وزاد زهده .

وقد راق للسيد البدوى أن يرحل الى العراق ليشبع نهمه فى العلم ويتصل بكبار رجال التصوف فيه . فبدأ رحلته فى المحرم سنة ٦٣٤ هـ ووصل الى بغداد بعد شهرين من بدء رحلته فى عهد الخليفة العباس المستنصر بالله . غير أن رحلته الى العراق لم تدم أكثر من عام اتصل بعلماء العراق ووقف على ما عندهم وعرف تعاليم القطبين أحمد الرفاعى وعبد القادر الجيلانى اللذين كانت لهما زعامة التصوف فى العراق وعاد الى الحجاز مرة أخرى فأقام بها ما يقرب من ثلاثة أعوام ولكنه كان فى ذلك كله شغوفا بالرحيل الى مصر التى شاهدها فى صباه ليقيم بها ويقضى بقية أيامه فيها .

محاربته لفرنسا

وفى سنة ٦٣٧ هـ الموافقة لسنة ١٢٤٠ كان السيد البدوى قد وصل فعلا الى مصر واتخذ من طنطا (طنتدا) موطنا له ينشر العلم وفقه الشافعى فيها ويرفع لواء الصوفية والتقرب الى الله بين تلامذته ومريديه وأتباعه فيها .

وما كاد السيد البدوى يستقر بطنطا حتى كان صيته قد ذاع وملأ الآفاق وأقبل الناس عليه وعلى تعاليمه من كل صوب وحدب يتسابقون الى الاغتراف من بحره والانتفاع بفضله . وظل كذلك يسابق الايام ذكره

ويسطع على الأنام علمه حتى كان سلطانه الروحى على الناس أقوى من سلطان الملوك والامراء فى مصر وحتى خشى الظاهر بيبرس على عرشه منه فأوفد اليه يستظهر أمره ويعرف حقيقته وحقيقة دعوته خشية أن يسقطه عن العرش فلما اطمأن الظاهر الى أن السيد البدوى لا يبغى مالا ولا جاها ولا سلطانا دنيويا وأنه رجل يهدى النـــاس الى الحق ويبصرهم بطـــريق النجاة سعى اليـــــه والتمس البركة منه كما جاء فى أكثر من رواية من روايات التاريخ .

هذا ولم يقتصر فضل السيد البدوى فى مصر على نشر الهداية بين الناس وارشادهم الى طريق الحق والاخذ بيدهم الى طريق النجاة .. لم يقتصر فضله على ذلك فحسب وانما كان السيد البدوى رضى الله عنه فى مقـــدمة الذين قاموا يستنهضون همم الناس للجهاد فى سبيل الله وصد أعدائه عن البلاد . وذلك حينما أراد لويس التاسع ملك فرنسا الذى كان يلقب نفسه «بالقديس لويس» غزو مصر محاولا من جديد تنفيذ الخطة التى فشل فيها الصليبيون من قبل لاخضاع المسلمين فى الشرق الاوسط لنفوذهم والسيطرة على بلادهم .

وقد ظن لويس أنه سينجح فيما فشل فيه غيره وأنه سيتمكن بقواته وعتاده من فتح مصر والسيطرة عليها فأعد جيشا كبيرا زوده بالكثير من العتاد الحربى واتجه الى ميناء دمياط فاستولى عليها بلا مقاومة تذكر وكان ذلك فى سنة ١٢٤٩ م حتى اذا ما دخلتها جيوشـــه ووضعت أقدامها فى أرضها سار بجيوشه الى المنصورة يريد الوصول عن طريقها الى القاهرة قلب البلاد وعاصمتها .

وهنا يبرز فضل السيد البدوى فى الدفاع عن البلاد ورد الاعداء عنها . اذ قام يستنهض الهمم ويحث الناس على الخروج للجهاد فى سبيل الله ويرسل جيوشهم تباعا لقتال العدو الذى غزا بلادهم ونزل بأرضها .

وليس من المستبعد ولا من المستغرب أن يكون السيد البدوى قد اتجه مع هذه الجيوش الى المنصورة يشد أزرها ويقوى جانبها بسلطانه الروحى حتى تم النصر للمدافعين عن البـــلاد ، وحتى دارت الدائرة على أعدائهم وانهزموا شر هزيمة ، واندحرت جيوشهم ، وأسر ملكهم لويس فى دار ابن لقمان بالمنصورة على نحو ما هو مقرر ومعروف فى التاريخ .

ليس من المستبعد أن يكون هذا ، بل هو أقرب الى التصديق والعقل وان كانت كتب التاريخ قد غفلت عن ذكر شىء من مواقف السيد البدوى وكفاحه فى هـــذا الموضوع بالذات لأنها كما جرت العادة درجت عـــلى أن تنسب النصر للسلاطين والقواد . خاصة وأن السيد أحمد البدوى لا يهمه أن ينسب اليه التاريخ شيئا أو لا ينسب وانما الذى كان يهمه هو ارضاء ربه وضميره وأداء الواجب كاملا خالصا لوجه الله وقد أدى ما أداه وحقق الله

النصر الباهر للمسلمين فلا يضيره بعد ذلك أن ينسب فضل كفاحه لفلان أو علان من السلاطين . بل حسبه أن العدو لم ينل قصده من غزو البلاد ، وحسبه أيضا أن العدو قد اندحر ومنى بخيبة الامل .

والذى يؤكد عندى أن السيد البدوى خاض غمار هذه الحرب واشترك فيها فعلا الاناشيد الشعبية التى رددها الشعب بعد أن حقق الانتصار وذاق حلاوته . ومن هذه الاناشيد نشيد يقول :

السيد الجيـــد اللى من الشـــباب مد ايده
جاب اليسير واليسيرة من بلاد القوم فى حديده

ونشيد آخر يدور حول هذا المعنى قالوا فيه :

الله الله يا بدوى جاب اليسره

بل أكثر من ذلك فانه مع بقاء هذه الاناشيد الى يومنا الحاضر فان هناك طائفة من مريدى السيد البدوى تشترك فى احياء مولده وتضع على رأسها الخوذات الحديدية وتلبس الدروع الحديدية أيضا وتمشى مغللة بالسلاسل لتذكر الناس بفضل السيد البدوى وتعيد الى أذهانهم ما فعله السيد البدوى فى هذه الحرب وما كان له فيها من مواقف خالدة ، أبرزها وأظهرها فكاك الاسرى واخلاء سبيلهم بعد أن حشد قوى الشعب وخاض بها غمار الحرب .

وهذا كله . سواء كانت هذه الاناشيد ، أو خروج هذه الطائفة على هذا النحو بملابس الاسرى لا يعنى الا حقيقة واحدة هى أن السيد البدوى رضى الله عنه قد خاض غمار هذه الحرب وأبلى فيها بلاء حسنا .

وهذه الحقيقة وان كانت قد ضاعت فى غمار الاحداث والايام بسبب غفلة المؤرخين أو حرصهم على ارضاء السلاطين والامراء بنسبة كل فضل اليهم فان وجود هذه الاناشيد وعمل هذه الطائفة خير شاهد على وجود هـــذه الحقيقة الكبرى فى حياة السيد البدوى . وكم من حقـــائق تذهب مع الايام . ثم يهتدى اليها باشارة عابرة أو سطور مهملة .

والسيد البدوى لو لم يسهم فعليا فى هذه الحرب ، ولو لم يعبىء القوى الشعبية للدفاع عن البلاد ، ولو لم يخض غمارها .. أقول لو لم يفعل هذا كله لما وضع الشعب هذه الاناشيد التى كانت نتيجة لهذه المواقف الفذة والذى صوروا جانبا منها أجمل تصوير فى أبدع اطار . فالنشيد الاول اذا فسرناه ووضعنا النقاط فوق الحروف فى كلماته كان معناه ومبناه أن السيد البدوى خاض غمار هذه الحرب بنفسه وأنه لم يكتف بالوصول الى النصر الباهر فحسب . بل دخل معسكرات الاعداء وأخلى سبيل الاسرى الذين

أسروهم من المسلمين رجالا ونساء . ويعضد هذا المعنى ويؤكده أيضا النشيد الثانى ويقوى هذا وذاك حرص هذه الطائفة على ذلك المظهر حتى يومنا الحاضر .

ولو لم يكن هذا قد حدث فعلا لما أنشد الشعب أناشيده . ولما حرصوا على الاشادة بأعمال السيد البدوى وابرازها فى هذه الحرب لان فى كرامات السيد البدوى العميمة وأفضاله الاخرى غناء عن كل ذلك اذ لا حاجة به لان ينسب اليه أبناء الشعب فضلا لم يصنعه . وعملا لم يصدر عنه لانه غنى بأفضاله الاخرى .. غنى بما عدا ذلك من جلائل الاعمال التى تقربه الى الله .

على أن كتب التاريخ وان كانت قد خلت من الاشارة الى هذه الواقعة ففى كتب المناقب ما يمكن أن يكون ظهيرا لما ذهبنا اليه . وان لم يعرض بالتفصيل لما أوضحناه . فقد روى السيوطى وهو يسرد كرامات السيد البدوى « أن امرأة أسر الفرنج ولدها فلاذت به فأحضره اليها فى قيوده » ولا يقدح فى هذه الرواية أنه قد نسب الى الامام الرفاعى قبل السيد البدوى قصة الاسير وأمه التى أحضره اليها فى قيوده أيضا وفى ذلك يقول عن هذه الحادثة .

سلو أم عمر وكيف بات أسيرها ... تفك الاسارى دونه وهو موثق

فلا هو مقتول . ففى القتل راحة ... ولا هو ممنون عليه فيطلق

لا يقدح فى رواية السيوطى نسبة الحادثة بعينها الى الامام الرفاعى ذلك أن الظروف كلها تؤيد وقوعها من السيد البدوى لانه عاصر حملة لويس على مصر . ولانه أسهم فيها كما شرحنا ولان الشعب سجل مواقفه فيها على الصورة التى أشاد فيها بمواقفه أثناء هذه الحرب . أما شعر الامام الرفاعى فلا دلالة فيه بالمرة على فكاك أسير . وانما كل ما تضمنه هذا الشعر هو وصف لأسير يعانى من الاسر لا أكثر ولا أقل .

ومجموع ما تقدم من الاناشيد ورواية السيوطى . ومظهر طائفة الاسرى التى تحرص على الظهور به حتى يومنا الحاضر اذا ضم الى بعضه كون لنا مجموعة من الوثائق يمكن أن نعتمد عليها كل الاعتماد فى أثبات هذه الحقيقة الكبرى فى تاريخ السيد البدوى وهى أنه حارب الفرنسيين . وقاد جموع الشعب معه فى هذه الحرب التى انتهت بهذا الانتصار المؤزر . والتى عاد السيد البدوى منها ومعه جميع الاسرى الذين أسرهم العدو بعد أن أطلق سراحهم وأعاد اليهم حريتهم .

وانه ليدهشنى حقا وأنا أشيد بمقام السيد البدوى أن أجد من يحاول الاجتراء على مقام هذا الولى فيزعم أنه قدم مصر جاسوسا للفاطميين ليدعو لهم وليمهد لاقامة دولتهم حتى اذا أعيته الحيلة فيما قدم لتنفيذه فضل

الاقامة فى أرض مصر على العودة الى المغرب خوفا من عقاب الفاطميين وتحت ستار الولاية قضى بقية حياته فيها .

وكنت أود ألا أعير هـذا الافتراء أى التفات لولا أن البعض قـد أودعه فى بطون الكتب وحشاه فى المؤلفات على أنه حقيقة ، ولهذا كان لزاما على أن لا أدع المجال دون دحضه ودون أن أبين أنه مجرد ادعاء ان دل على شىء فانما يدل على جهل الذين أذاعوه ورددوه .

وحسبك فى هذا المقام أن تعلم أن السيد البدوى قد غادر بلاد المغرب مع أبيه الى مكة وهو فى السابعة من عمره ومنها انتقل الى العراق ثم عاد ثانية الى الحجاز ومنها رحل الى مصر وقضى بقية أيامه فيها ، وهذه الاماكن كانت بعيدة كل البعـد فى ذلك الوقت عمـا له صلة بالفاطميين فكيف يتصور مع هذا أن يكون السيد البدوى قد جاء الى مصر جاسوسا لهم وداعيا لدولتهم .

وقد يقال ان التشيع فى ذلك الوقت كان منتشرا فى العراق بل ربما كانت العراق أقوى مراكزه ولا يستبعد أن يكون السيد البدوى قد التقى هناك بمن رسم له الخطة ومهد له القيام بدوره فى مصر .

والرد على ذلك أن مصر كانت أيضا مركزا من مراكز التشيع كالعراق والتشيع لآل البيت لا صلة له على الاطلاق فى هذه الحقبـة باعادة دولة الفاطميين أو التمهيد لها .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان دولة الفاطميين التى يزعمون أن السـيد البدوى قد جاء الى مصر داعيـة من دعاتها قد انتهت وانقـرضت والسيد البدوى فى ظهر الغيب وفى صلب آبائه وأجداده ، وأنه لم يجىء الى طنطا الا بعد انتهاء حكم هذه الدولة بنحو قرن من الزمان فقد جاء الى طنطا فى سنة ٦٣٧ هـ كما مر بك فى عهد الايوبيين .

فكيف يستقيم اذن هذا الزعم وكيف يتصور أن يجىء السيد البدوى لمصر داعيا وممهدا لقيام دولة انقرضت قبل مجيئه الى الدنيـا بقرن من الزمان .

فقيه دولى

بقى بعد ذلك أن نقول ان السيد البدوى الذى يوجهون اليه مثل هذا الاتهام كان وليا من أولياء الله الصالحين وعالما من العلماء الاعلام وأنه جمع بين الحقيقة والشريعة وأدى رسـالته فيهما أكمل أداء . وقـد بقى من آثاره العلمية مؤلف فى فقه الشافعى توجد نسخ منه فى مكتبة المسجد الاحمدى بطنطا .

وحسبك أن تعلم مرة أخرى أن « ابن دقيق العيد » قاضى القضـــاة فى مصر وشيخ علمائها وشارح البخارى المشهور قد سمع بثناء الناس عـــلى السيد البدوى والتحدث بفضله فحفزه هذا على الانتقال اليه فى طنطا واختبار مدى علمه الذى يتحدث به النـــاس وما كاد يلتقى به حتى بادر بالاعتراف بفضله وأشاد بغزير علمه واعتذر اليـــه عن خوضه فى حقه وقبـــل يده ملتمسا منه الدعاء والبركة .

ونحن وان لم نكن فى هذا المقـــال بصدد التحدث فى مناقب الســـيد البدوى وتعداد كراماته الا أننا نذكر بكل فخر أن مالم يعرف من كراماته أكثر بكثير مما ظهر منها ولعل فى مقدمة هذه المكرمات حشد قوى الشعب أمام خصوم البلاد وخوض غمار الحرب ضدهم حتى سلمت مصر من شرورهم وحتى رد الله كيدهم فى نحورهم . رضى الله عنه وأرضاه ، وجعلنا من ذاكرى فضله ونبله .

أحمد عبد المنعم البهى

* * *

محمد قدرى محمد النشرتى

يقدم الشكر للقائمقام الدكتور البارع عباس الغرينى ، على عنايته وبراعته فى العملية الجراحية التى أجراها له وجعـــل الله الشفاء على يديه ببركة استمدها من المغفور والده العارف بالله الشيخ الغرينى ..